

الدرس الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى** في كتابه: [القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن] في ضمن القاعدة التاسعة عشرة، قال: وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها؛ لينبّه عباده أنّهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم العظيم، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ [سورة البقرة، من الآية: ٢٠٩]؛ لم يقل: فلکم من العقوبة كذا، بل قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية: ٢٠٩]؛ أي: فإذا عرفتم عزّته وهو قهّره وغلّبه وقوّته وامتناعه، وعرفتم حكمته - وهو وضعه الأشياء مواضعها، وتنزيلها محالّها - أوجب لكم الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللکم؛ لأنّ من حكمته معاقبته من يستحقّ العقوبة: وهو المصّرّ على الذنب مع علمه، وأنّه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه، لکمال قهّره وعزّته.

الشيخ:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلي وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

لا يزال الحديث في القاعدة التاسعة عشرة، قال **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**: (ختم الآيات بأسماء الله الحسنى يدلُّ على أنّ الحكم المذكور له تعلقٌ بذلك الاسم الكريم)؛ ومرّ معنا أهمية هذه القاعدة، وعظيم فائدتها، وكبير أثرها، ومرّ معنا أيضاً ذكر أمثلةٍ توضح هذه القاعدة وتبينها.

ومن فروع هذه القاعدة ما أشار إليه هنا **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى** وسيمثل له ببعض الأمثلة، وهو أن الله **جَلَّ وَعَلَا**: (قد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها)؛ وهذا فرع من فروع هذه القاعدة.

وعلى ضوء هذا يُمكن لمن فقه أسماء الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وعرف معانيها، وعرف السياق الذي وردت فيه؛ يمكن له بذلك أن يستنبط أحكاماً فقهية؛ إما أمر بشيء، أو نهى عنه، يستنبط ذلك من الاسم الذي ختمت به الآية دون أن يُصرَّح بالحكم؛ كأن يقول: يجوز للإنسان أن يفعل كذا؛ لأن الله **عَزَّ وَجَلَّ** ختم هذه الآية بهذا الاسم، أو يقول: لا يجوز له أن يفعل كذا؛ لأن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ختم هذه الآية بهذا الاسم، وهكذا يُمكن أن تُستنبط أحكام تُستفاد من الأسماء الحسنی المختومة بها آي القرآن الكريم، وهذا سيضرب عليه الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى جملةً من الأمثلة الموضحة:

قال: (وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنی عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها؛ لينبّه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم العظيم، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام)؛ أي أن الاسم الذي خُتمت به الآية يُشير إلى حكم، هذا الحكم هو مقتضى هذا الاسم وموجهه؛ لأن أسماء الله **عَزَّ وَجَلَّ** لها مقتضياتها الكونية القدريّة، ولها مقتضياتها أيضاً الشرعية الدينية، أسماء الله **جَلَّ وَعَلَا** لها مقتضياتها وآثارها الكونية القدريّة، ولها أيضاً مقتضياتها وآثارها الشرعية الدينية.

ويجمع هذين المعنيين قول الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ [سورة الأعراف، من الآية: ٥٤]؛ فالخلق هذا من مقتضيات أسماء الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، والأمر كذلك هو من مقتضيات أسماء الله **جَلَّ وَعَلَا**، وعليه فإن من فقه أسماء الله **جَلَّ وَعَلَا** كما ينبغي، وفقه أيضاً السياق الذي وردت فيه تلك الأسماء استطاع أن يستنبط من خلال ذلك أحكاماً شرعية؛ هذه الأحكام الشرعية هي مستفادة من مقتضيات وموجبات أسماء الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** الحسنی، وما من اسم من أسماء الله **جَلَّ وَعَلَا** إلا وله مقتضياته وآثاره؛ إما الكونية القدريّة، أو الشرعية الدينية على ما فصل ذلك وبينه أهل العلم.

قال **رَحْمَةُ اللَّهِ**: مثال ذلك: (قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [سورة البقرة، من الآية: ٢٠٩]). ﴿**فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ**﴾؛ يعني: إن وقعتم في الزلل والخطأ والإثم والمخالفة بعد مجيء البينات؛ يعني بعد حصول العلم، ومعرفةكم بالزلل، وأن ما وقعتم فيه خطأ ومخالف لأمر الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، أي إن حصل لكم زلل بعد العلم، وقيام الحجة عليكم بفهم ومعرفة المنع من هذا الأمر الذي وقعتم فيه؛ (لم يقل: فعليكم من العقوبة كذا وكذا)؛ أو أن الله سيعاقبكم بكذا وكذا، أو سيحل بكم كذا وكذا، لم يقل شيء من ذلك، وإنما قال: ﴿**فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [سورة البقرة، من الآية: ٢٠٩]؛ فختم هذه الآية

الكرامة بهذين الاسمين: العزيز الحكيم؛ يعطي هذا المعنى وهو التهديد والوعيد لمن زل بعد علم، وقيام حُجة، ومعرفة بأحكام الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

(﴿فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَكُفُّوا أَلَيْسَ لَكُمُ الْعَذَابُ مِنْ اللَّهِ الْكَافٍ﴾ [سورة البقرة، من الآية: ٢٠٩]؛ لم يقل: فلکم من العقوبة كذا وكذا؛ أو سيحل الله بكم من العقوبة كذا وكذا، وإنما قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وأنت الآية بهذه الصيغة: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ وفي القرآن مثل هذه الصيغة وقد عدتها مرة فقاربت الثلاثين موضعاً، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾؛ ويذكر شيئاً من أسمائه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

وهذا فيه من الفائدة أمر الله **جَلَّ وَعَلَا** لعباده بتعلم أسمائه، يمر في القرآن آيات كثيرة يأمر فيها **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عباده أن يتعلموا أسمائهم، وأن يتفقهوا فيها، فقله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ هذه دعوة إلى الفقه في أسماء الله ومعرفتها، ليس هذا وحسب، بل إلى الفقه في أسماء الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** الحُسنَى والفقه أيضاً في آثارها ومقتضياتها؛ لأن هنا مقام تهديد: ﴿فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَكُفُّوا أَلَيْسَ لَكُمُ الْعَذَابُ مِنْ اللَّهِ الْكَافٍ﴾؛ المقام هنا مقام تهديد، واكتفى بذكر التهديد اكتفى عن ذلك بالدعوة إلى الفقه والعلم بهذين الاسمين: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ ومعنى ذلك: إن علمتم علم يقين أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عزيزٌ حكيم؛ وأحضرت هذا المعنى -معنى هذا الاسم- في أذهانكم، وأيضاً تأملتم في آثار هذا الاسم ومقتضياته وموجباته أرشدكم ذلك ودلكم أن من يزل بعد حصول البينة وحصول العلم لا يتركه الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، بل هو عزيز قاهر **جَلَّ وَعَلَا** قويٌّ متينٌ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وحكيم يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها، ومن كان يقع في الزلل بعد العلم والفهم وحصول البينات؛ فهذا مُعرض لوعيد الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** وعقوبته التي يدل عليها ختم هذه الآية بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (أي: فإذا عرفتم عزَّته وهو قَهْرُهُ وغلبته وقوَّته وامتناعه)؛ وهذه كلها من معاني اسمه العزيز، هذه كلها من معاني اسم الله العزيز؛ لأن اسم الله العزيز يدل على القوة، يدل على الغلبة، يدل على الامتناع **جَلَّ وَعَلَا**، وأنه **جَلَّ وَعَلَا** القاهر فوق عباده، العزيز الذي لا يُغلب، ولا يُعجزه شيء، كل هذا من معاني اسمه **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** العزيز. قال: (فإذا عرفتم عزَّته وهو قَهْرُهُ وغلبته وقوَّته وامتناعه)؛ هذه كلها من معاني اسم الله العزيز.

(وعرفتم حُكْمَهُ -وهو وضعه الأشياء مواضعها، وتنزيلها محالها- أوجب لكم الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللکم)؛ وهذا أيضاً يعطينا فائدة تتعلق بأسماء الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ألا وهي: أن أسماء الله **جَلَّ وَعَلَا** كلها مقتضية آثارها

من العبودية لله، وليس هناك اسم من أسماء الله **جَلَّ وَعَلَا** إلا وله عبودية يقتضيها إيمان العبد بهذا الاسم، ويوجبها إيمانه بهذا الاسم، ما من اسم من أسمائه إلا وله عبودية، وهنا إيمانك بالله عزيز حكيم، قاهر لا يغلب، متين قوي **جَلَّ وَعَلَا**، وأنه حكيم يضع الأمور مواضعها وينزلها منازلها؛ هذا من العبوديات التي يثمرها لك هذا الإيمان بهذين الاسمين الانكشاف عن المعاصي، والبعد عن الآثام؛ لأن من تعصيه سبحانه عزيز حكيم، عزيز أي قوي قاهر غالب **جَلَّ وَعَلَا** قادر عليك في كل لحظة، لا يعجزه شيء، وأيضا حكيم لا يترك من يزل ويعصي ويأثم، وعنده علم وعنده بينات لا يتركه، بل يُحل به عقوبته ونقمته، وهذا من حكمة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، كما أنه يُكرم الطائعين بعظيم الثواب وجميل المآب، أيضا يعاقب العاصين، كل ذلك من مقتضيات حكمة الله؛ فهو **عَزَّ وَجَلَّ** حكيم أي له الحكم، وحكيم أي أفعاله كلها صادرة عن حكمة، ليس في أفعاله -تنزه وتقدس- لعب أو عبث أو باطل، تنزه الله **جَلَّ وَعَلَا** عن ذلك: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [سورة المؤمنون، من الآية: ١١٥]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة ص، من الآية: ٢٧]، فالله **جَلَّ وَعَلَا** منزّه عن ذلك، فإذا إيمان العبد بهذين الاسمين العظميين يُثمر فيه انكشافه عن المعاصي، وبعده عن الزلل، ومراقبته الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**.

قال: (أوجب لكم الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللکم؛ لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة: وهو المصّر على الذنب مع علمه). قوله: (مع علمه)؛ هذه أخذها **رَحْمَةُ اللَّهِ** من الآية: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾؛ أي مع العلم.

قال: (وأنه ليس لكم امتناع عليه)؛ لماذا؟ لأنه عزيز؛ لأنه **جَلَّ وَعَلَا** عزيز، (ولا خروج عن حكمه جزائه)؛ لأنه حكيم؛ لأنه **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** حكيم. (لكمال قهره وعزته)؛ فإذا ختم الآية بهذين الاسمين العظميين أفاد حكما، وهو التهديد والوعيد لمن زل من بعد ما جاءت به البينات.

القارئ:

وكذلك لما قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [سورة المائدة، من الآية: ٣٤]؛ لم يقل: فاعفوا عنهم أو اتركوهم ونحوها، بل قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ [سورة المائدة، من الآية: ٣٤]؛ يعني: فإذا عرفتكم ذلك وعلمتموه، عرفتكم أن من تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه، فيدفع عنه العقوبة.

الشيخ:

هذا مثال ثانٍ لهذه القاعدة، واستنباط الأحكام من ختم الآيات بأسماء الله الحسنى، قال: قول الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة المائدة، من الآية: ٣٤]، ﴿إِلَّا

الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ هذه الآية تتعلق بأهل الجرائم وقُطِّعَ الطريق؛ لأنها جاءت عقب

قوله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ

يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [سورة المائدة، من الآية: ٣٣]؛ فجاء عقب هذه

الآية قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: جاءوا هم من أنفسهم معلنين التوبة، ومعلنين

التوبة من هذه الجرائم ومن هذه الأفعال، فكيف يُعاملون؟

قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [سورة المائدة، من الآية: ٣٤]؛ لم يقل: فاعفوا عنهم؛ وتجاوزوا

عنهم، واصفحوا عنهم، لم يقل ذلك، وإنما قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ فماذا يُستفاد في هذا

المقام؟ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ ماذا يُستفاد في هذا

المقام بختم هذه الآية بهذين الاسمين العظيمين؟

لا شك أن الذي يُستفاد من ذلك هو القيام بمقتضى هذين الاسمين وهو العفو والمغفرة والصفح عن هؤلاء،

فاكتفى **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** عن ذكر الأمر بالعفو عنهم والصفح بالختم بهذين الاسمين العظيمين وهما: (الغفور

الرحيم)، ولهذا قال الشيخ: (يعني: فإذا عرفت ذلك وعلمتموه، عرفتُمْ أَنَّ مَنْ تَابَ وَأَنَابَ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ

ويرحمه، فيدفع عنه العقوبة).

القارئ:

ولمَّا ذَكَرَ عقوبة السَّارِقِ قال في آخرها: ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة المائدة، من الآية: ٣٨]؛ أي: عزَّ وحكمَ

فقطَعَ يَدَ السَّارِقِ، وعزَّ وحكمَ فعاقبَ المعتدين شرعًا وقدرًا وجزاءً.

الشيخ:

ثم ذكر هذا المثال وهو قول الله تعالى لما ذكر عقوبة السَّارِقِ، قال: ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛

ختمها **جَلَّ وَعَلَا** بهذين الاسمين، وختمها بهذين الاسمين مناسب غاية المناسبة؛ لأنه عز **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** فكان قاهرًا

غالبًا متصرفًا في هذا الكون لا يعجزه شيء، وحكيم يحكم **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بما يشاء قدرًا وشرعًا وجزاء؛ لأن اسم الله **جَلَّ وَعَلَا** الحكيم يدل على ثبوت الحكم لله بمعانيه الثلاثة:

- الحكم الكوني القدري: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس، من الآية: ٨٢].
- والحكم الشرعي الديني: ﴿أَنحَكُمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة، من الآية: ٥٠]، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [سورة يوسف، من الآية: ٤٠].

- والحكم الجزائي: وهو معاقبة المسيء بإساءته، وإثابة المحسن على إحسانه.

فالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الحكيم أي الذي له الحكم قدرًا، وشرعًا، وجزاء؛ هذه الأحكام كلها لله؛ فالأحكام الكونية القدرية له، ليس له شريك، والأحكام الشرعية الدينية له **جَلَّ وَعَلَا** ليس له شريك، والأحكام الجزائية من ثواب وعقاب في الدنيا والآخرة له **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ليس له شريك، فالحكم لله **جَلَّ وَعَلَا** شرعًا وقدرًا وجزاءً.

وختم هذه الآية بهذين الاسمين ﴿تَكْلَامٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأن عقوبة السارق بقطع يده والتنكيل به بهذه الصفة هذا من مقتضى عزة الله وحكمه وحكمته، ولهذا ختم **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** هذه الآية الكريمة بهذين الاسمين العظيمين.

وعرفنا في لقاء الأمس ما ذكره العلامة ابن القيم **رَحِمَهُ اللَّهُ** في كتابه [جلاء الأفهام] قصة الأعرابي الذي سمع قارئًا يقرأ هذه الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ [سورة المائدة، من الآية: ٣٨] (والله غفورٌ رحيم)؛ هكذا قرأها، فاستنكر الأعرابي هذا، وقال: ليس هذا كلام الله؛ لأن الآية مقامها مقام عقوبة ونكال ووعيد، والخاتمة: (والله غفور رحيم) وجد تنافرًا في الكلام، وعدم انسجامٍ وتواءم، فقال: ليس هذا كلام الله، فغضب القارئ، قال: تُنكر كلام الله؟ قال: لا، لا أنكر كلام الله، لكن ليس هذا كلام الله، فرجع إلى قراءته واسترجع حفظه، فقرأها على الصواب: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ فقال الأعرابي: نعم، عزّ فحكم فقطع، فكان ختم الآية بهذين الاسمين العظيمين مناسبٌ غاية المناسبة.

القارئ:

ولمَّا ذكر الله موارِيثَ الورثة وقَدَّرَها قال: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية: ١١]؛ فكونُهُ عَلِيمًا حَكِيمًا يَعْلَمُ ما لا يَعْلَمُ العباد، وَيَضَعُ الأشياءَ مواضعها، فَاخْضَعُوا لِمَا قالَهُ وفَصَّلَهُ في توزيعِ الأموالِ على مُسْتَحِقِّيها، الذين يَسْتَحِقُّونَها بحسَبِ عِلْمِ الله وحِكمَتِهِ، فلو وُكِّلَ العبادُ إلى أنفُسِهِم، وقِيلَ لَهُم: وَزَعُوا أَنْتُمْ بحسَبِ اجتِهادِكم لدخلِها الجَهْلُ والهوى وعدمُ الحِكمة، وصارتِ الموارِيثُ فوضى، وحصلَ في ذلك مِنَ الضررِ ما اللهُ بِهِ عليم، ولكنْ تَوَلَّاهَا وقسمَها بأحكامٍ قِسْمَةٍ وأوفَقَها للأحوالِ وأقربَها للنفع.

ولهذا مَنْ قَدَحَ في شيءٍ مِنْ أحكامِهِ، أو قال: لو كان كذا أو كذا فهو قاذُخٌ في عِلْمِ الله وفي حِكمَتِهِ.

ولهذا يذكُرُ اللهُ العِلْمَ والحِكمةَ بعدَ ذِكْرِ الأحكامِ، كما يذكُرُها في آياتِ الوعيدِ؛ لِيَبَيِّنَ للعبادِ أَنَّ الشرعَ والجزاءَ مُربوطٌ بحِكمَتِهِ غيرِ خارجٍ عَنْ عِلْمِهِ.

الشيخ:

المُناسِبُ هنا بعدَ قولِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (غيرِ خارجٍ عَنْ عِلْمِهِ)؛ أَنْ توضعَ نقطة، وتبدأَ جُملةٌ جديدةٌ بقولِهِ: (ويختمُ الأدعية)؛ بسطرٍ جديد.

هنا مثال آخر للقاعدة، قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (ولمَّا ذكر الله موارِيثَ الورثة وقَدَّرَها قال: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [سورة النساء، من الآية: ١١])؛ أي هذه الموارِيثُ فريضةٌ مِنَ اللهِ أي فرضها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عبادِهِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: أَنَّ هذه القِسْمَةَ لهذه الموارِيثِ بهذه الدقة وبهذا التحديد الذي جاء في كتابِهِ كل ذلكم صادرٌ عن عليمٍ حَكِيمٍ، عليمٍ أي أحاطَ عِلْمًا بِتَبَارَكَ وَتَعَالَى بالعباد، وأحاطَ عِلْمًا بمصالحِهِم، وأحاطَ عِلْمًا بكل شيءٍ جَلَّ وَعَلَا، علم ما كان، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون؟ علم السرائر والمعلنات، علم الظواهر والبواطن، علم المصالح والحاجات، أحاطَ عِلْمًا بِتَبَارَكَ وَتَعَالَى بكل شيءٍ، والعباد ليس عندهم حظٌّ ونصيبٌ مِنَ العِلْمِ إلا قَدْرٌ قليل؛ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية: ٨٥]؛ فهذه القِسْمَةُ للتركة وللموارِيثِ قِسْمَةٌ مِنَ عليمٍ؛ أي: من محيطٍ -جل وعز- عِلْمًا بالعباد ومصالحِهِم ومنافعِهِم وحاجاتِهِم.

وحكيم؛ أي: يضعُ الأمورَ مواضعها، وينزلُها محالها جَلَّ وَعَلَا، وحكيم أيضًا له الحكم؛ لأن اسم الله الحَكِيم يدل على الحكم والحكمة معًا، يدل على ثبوت الحكم لله قدرًا وشرعًا وجزاءً، ويدل أيضًا على ثبوت الحكمة لله وهي وضعُ الأمورَ مواضعها وإنزالُها محالها، فهذه القِسْمَةُ للموارِيثِ هي صادرةٌ من عليمٍ حَكِيمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا الواجب على العباد أن يكون شأنهم مع هذه القسمة وهذه الأحكام المتعلقة بالمواريث، وأحكام الشرع عموماً؛ أن يتلقوها بالقبول والتسليم، وأن يحذروا أشد الحذر من التقدم بين يدي الله ورسوله **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** المبلغ عنه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [سورة الحجرات، من الآية: ١]، ويقول **جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** [سورة البقرة، من الآية: ١٦٩]، ويقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [سورة الإسراء، من الآية: ٣٦]؛ فيحذر العبد أشد الحذر من ذلك، ولهذا ويله ثم ويله من يقابل أحكام الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بالاعتراض والانتقاد، مثل أن يسمع حكماً من أحكام الله ثم يأتي بعقله القاصر وفكره الضعيف وفهمه السقيم ويقول: لماذا حكم الله بكذا؟ لماذا لم يحكم بكذا؟ ويله والله ثم ويله؟ من هو هذا الذي يجرؤ على رب العالمين **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، ويجرؤ على أحكام الله ينتقد أو يعترض؟ يأتي بعض الناس بجراءة سافرة ووقاحة شنيعة ويقول: لماذا حكم الله بكذا؟ لماذا لم يحكم بكذا؟ لماذا الحكم الفلاني كذا ولم يكن كذا؟ من أنت حتى تقول هذا الكلام؟ أنسيت أنك عبدٌ ذليل خاضع لله، مقامك هو العبودية والذل، مقامك هو الطاعة والانقياد، مقامك هو الاستسلام والإذعان هذا مقامك.

ليس مقامك الاعتراض والانتقاد، والله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية: ٢٣]، ولهذا قيل في الحكم الماثورة قديماً: "لا تقل لِمَ فعل الله؟ أو لِمَ أمر الله؟ ولكن قل: بِمَ أمر الله؟"، هذا مقامك، عندما تريد أن تسأل مقامك في السؤال أن تقول: بِمَ أمر الله؟ بأي شيء أمرني الله؟ حتى أنفذ وأمتثل، أما - والعياذ بالله - أن يقول: لِمَ أمر الله؟ هذا سؤال المعارض المتقدم، هذا سؤال من لا يخضع ولا يستسلم، هذا سؤال من لا يحقق العبودية لله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، أن يأتي لأحكام الله وأقضيته وشرائعه وأوامره ويقول فيها: لِمَ؟

ولهذا.. السؤال عن أفعال الله بـ(لِمَ) باطل، والسؤال عن صفات الله بـ(كيف) باطل، لا يجوز أن يُسأل عن صفاته بكيف، يقول: كيف استوى؟ أو كيف ينزل؟ أو كيف يحيي؟ أو كيف يده؟ إلى آخره، هذا باطل، وكذلك السؤال عن أفعاله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بـ(لِمَ) هذا باطل، يقول لِمَ فعل الله؟ لِمَ لم يفعل الله؟ هذا باطل؛ هذا من أبطل الباطل، وأشد الاعتداء والظلم أن يأتي العبد الضعيف القاصر بعقله وفهمه وفكره ثم ينتقد أو يعترض على الرب العظيم الذي بيده **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أزمة الأمور العليم الحكيم **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

ولهذا مقام العبد هو مقام الإذعان والاستسلام، مثل ما قال الإمام الزهري **رَحِمَهُ اللَّهُ**: "من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم"، هذا مقامنا، وعلىنا التسليم؛ أن نسلم لأمر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وأمر رسوله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُبْلَغُ عَنْ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية: ٣٦]؛ الحكم لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، ومقامك أنت هو مقام العبودية والإذعان والاستسلام لله **جَلَّ وَعَلَا**.

ولهذا تُختم كثير من آيات الأحكام بهذين الاسمين سواء آية المواريث كما مثل الشيخ، أو آيات أحكام أخرى في القرآن الكريم تُختم بهذين الاسمين، وهذا المعنى ألمح الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى إليه بأن عدد من آيات الأحكام تُختم بذلك، فهذا مفاده أن هذه الأحكام صادرة من ربِّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عليم حكيم، ومقام العبد هو مقام الانقياد والتسليم والإذعان لأوامر الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** وأحكامه، وألا يقابل أي شيء من أحكامه باعتراضٍ أو انتقاد.

وهذا الباب -باب الاعتراض على أحكام الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**- هذا بابٌ وقع فيه خلل ولاسيما في هذا الزمان بشكلٍ مؤسفٍ جداً، لما ضعف إيمان الناس، وضعف في قلوبهم التعظيم لشرع الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وحكمه؛ بدأ بعض الناس يتفوه باعتراضاتٍ وانتقادات، لماذا كذا؟ لماذا لا يكون الحكم الفلاني كذا؟ يعترضون كثيراً ما تأتي.

ومن أمثلة ذلك وهو له رواجٌ وانتشار في زماننا ما يتعلق بالمرأة، ثبت في الصحيحين وغيرهما أن النبي **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** قال: «ما رأيتُ من ناقصات عقلٍ ودين»، وصف المرأة بنقص العقل ووصفها أيضاً بنقص الدين، أذهب لذوي اللب الحازم منكن، المرأة فتنة، وفتنتها هي أشد الفتن. «ما رأيت فتنة أضرم على الرجال من النساء»؛ هكذا قال **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**، الشاهد: أنه وصف المرأة بأنها ناقصة عقل ودين، الآن بعض الناس من النساء وبعض الرجال وأيضاً يكتب: لماذا يُقال: المرأة ناقصة عقل؟ والمرأة كذا والمرأة كذا والمرأة كذا ويزكرون أوصاف للمرأة، اعتراض هذا على من؟ هل هو اعتراض على شخص من آحاد الناس؟ أو اعتراض من مبلغ عن الله لا ينطق عن الهوى **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**، القائل لهذا الكلام هو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى -صلوات الله وسلامه عليه-.

فالمرأة العاقلة عندما تسمع هذا الحديث: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين»، تستفيد من ذلك أن تتجاهد نفسها على البعد عن السفه والغي والخلل الذي يقع فيه كثير من النساء، وتجاهد نفسها على الانضباط في العبودية، والانضباط بحقوق الزوج، وحقوق الأبناء، والمسئوليات التي هي ملقاة على عاتقها، أما المرأة الأخرى التي لا تُبالي بهذا الأمر تأتي منتقدة على أحكام الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

يُذكر -وهو من لطيف ما يُذكر- أن مجموعة من النساء اللاتي من هذا القبيل -من أهل الانتقاد والاعتراض وعدم التسليم-، جئنا إلى أحد العلماء منتقدات ومعتراضات على هذا الحديث، فجئنا إليه وقلنا: كيف يُقال: إن المرأة ناقصة عقل ودين؟ هذا غير ممكن، المرأة كذا، والمرأة كذا، والمرأة كذا، كيف يُقال: إن المرأة ناقصة عقل ودين؟

فقال لهن هذا العالم -ووفق في مقال-، قال: إن النبي ﷺ لما قال: «المرأة ناقصة عقل ودين»؛ لم يقصدكن أنتن، لما سمعن الكلام بهذه الصيغة في بداية الأمر فرحن بهذا الكلام، قال: ما قصدكن بهذا الكلام، لما قال: «المرأة ناقصة عقل ودين»؛ يقصد نساء الصحابة، ويقصد من كن على طريقة نساء الصحابة، أما أنتن لا عقل ولا دين، يعني المرأة التي تأتي معترضة على شرع الله ومعتضة على رسول الله ﷺ لماذا يقول كذا؟ هذا لا عقل ولا دين.

أين الدين الذي يحجز ويمنع الإنسان عندما يأتي الشخص معترض، ماذا يبقى للإنسان من دينه إذا كان يُقابل أحكام الله وشرع رسول الله ﷺ بمثل هذا الانتقاد والاعتراض؟!

مقام العبد هو مقام العبودية والتسليم والانقياد لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

إذا ذكر العبد أن هذه الأحكام كلها سواء أحكام المواريث أو غيرها صادرة من عليم حكيم لا يأتي بعلمه القاصر أو فهمه الضعيف ويبدأ يتناول على مقام الرب العظيم **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ويقول: لِمَ؟ ولو أنه كذا؟ لماذا لا يكون كذا؟ هذا كله من أبطل الباطل وأشد السفه.

القارئ:

ويختتم الأدعية بأسماءٍ تُناسبُ المطلوب. وهذا من الدعاءِ بالأسماءِ الحسنى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف، من الآية: ١٨٠؛ أي: تعبدوا لله بها، واطلبوه بكل اسمٍ مناسبٍ لمطلوبكم.

الشيخ:

ثم ذكر هذا المثل وهو مثال أيضًا واسع ونافع جدًا ويأتي كثيرًا في القرآن وأدعية النبي الكريم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** أنه يختتم الأدعية بأسماء تناسب المطلوب، وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنى؛ لأن الله قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [سورة الإسراء، من الآية: ١١٠]؛ فالله **جَلَّ وَعَلَا**، وقال **جَلَّ وَعَلَا**: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. **جَلَّ وَعَلَا** أمرنا أن ندعوه بأسمائه دعاء المسألة ودعاء العبادة.

ودعاه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بأسمائه يتطلب من الداعي أن يفقه أسماء الله ليجعل كل اسم منها في موضعه المناسب، عندما يدعوا الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فإن كان يريد رزقاً توسل باسمه الرزاق، وإن كان يريد مغفرة توسل باسمه الغفور، إن كان يريد توبةً يتوسل باسمه التواب، إن كان يريد فتحاً في علمٍ أو غيره توسل باسمه الفتاح. (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين)، (وارزقنا وأنت خير الرازقين)، (فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين)، وهكذا. يتوسل إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بالاسم الذي يناسب حاجته ومطلوبه. وهذا من الفقه في أسماء الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

قال: (أي: تعبدوا لله بها، واطلبوه بكل اسمٍ مناسبٍ لمطلوبكم)؛ وقد أشار ابن القيم في كتابه [جلاء الأفهام]: أن من جاء في دعاءه باسمٍ لا يناسب المطلوب يقع تنافر في الكلام، ولهذا يحتاج الداعي عندما يتوسل إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بأسمائه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وصفاته أن يتوسل منها بالاسم المناسب لمطلوبه، وإن لم يفعل ذلك حدث في دعائه تنافر، أو في ألفاظ دعائه شيئاً من التنافر، كأن يقول قائل في دعائه: اللهم اغفر لي إنك أنت شديد العقاب، أو إنك أنت المنتقم، أو إن بيدك كذا من العقوبة.. يعني مثل هذا يحدث فيه تنافر، لكن اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم، ارزقني وأنت خير الرازقين، افتح علي بالعلم والهدى والتقوى وأنت خير الفاتحين، ونحو ذلك هذا يأتي متناسباً متوائماً.

القارئ:

وقوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة الحج، من الآية: ٥٩]؛ والآيات المُتتَابِعَةُ التي بعدها، كُلُّ وَاحِدَةٍ خُتِمَتْ بِاسْمَيْنِ كَرِيمَيْنِ، فالأولى منها هذه: خَتَمَهَا بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ: يقتضي علمه بِنِيَّاتِهِمِ الْجَمِيلَةِ، وَأَعْمَالِهِمِ الْجَلِيلَةِ، وَمَقَامَاتِهِمِ الشَّامِخَةِ، فَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِالْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَيَعْفُو وَيَحْلُمُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ مَا فَعَلُوها.

الشيخ:

يمكن للإخوة الذين قريبة منهم المصاحف أن يتابعوا معنا في سورة الحج الآية (تسعة وخمسين)، والآيات بعدها؛ لأن الشيخ سيذكر سبع آيات على التوالي من سورة الحج:

الآية الأولى: وهي قول الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿لِيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة الحج، من الآية: ٥٩]؛ ختم هذه الآية بعد ذكره **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أنه يُدخل عباده المجاهدين في سبيله المدخل الذي يرضونه، ختمها بهذين الاسمين: العليم الحليم، قال: (خَتَمَهَا بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ)؛ ختم هذه الآية بالعلم والحلم. (يقتضي علمه بِنَيَّاتِهِمِ الْجَمِيلَةِ، وَأَعْمَالِهِمِ الْجَلِيلَةِ، وَمَقَامَاتِهِمِ الشَّامِخَةِ). ﴿لِيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾؛ عليمٌ بهم، عليمٌ بالمقاصد والنيات، عليمٌ بالأعمال العظيمة، والطاعات الجليلة التي قاموا بها، لا تخفى عليه بل هو مطلع عليها.

وأيضاً هو **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** حليم؛ يحلم ويعفو ويتجاوز عما يكون من العبد من زلل، أو تقصير، أو هناة، أو زلات، أو نحو ذلك، قال: (فِيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِالْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَيَعْفُو وَيَحْلُمُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ)؛ لأن هؤلاء لا بد أن عندهم شيء من الخطأ، فالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يقابل أخطائهم بحلمه، ويدخلهم هذا المدخل الكريم.

القارئ:

وَحَتَمَ الثَّانِيَةَ بِالْعَفْوِ الْغَفُورِ، فَإِنَّهُ أَبَاحَ الْمَعَاقِبَةَ بِالْمِثْلِ، وَنَدَبَ إِلَى مَقَامِ الْفَضْلِ، وَهُوَ الْعَفْوُ وَعَدَمُ مَعَاقِبَةِ الْمُسِيءِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ بِالْإِتِّصَافِ بِهِذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ لَتَنَالُوا عَفْوَهُ وَمَغْفِرَتَهُ.

الشيخ:

الآية قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ [سورة الحج، من الآية: ٦٠]؛ ذكر هنا إباحة المعاقبة بالمثل، أباح **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** المعاقبة بالمثل، قال: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾؛ فالآية فيها إشارة إلى إباحة المعاقبة بالمثل، ولكن فيها إرشادٌ إلى ما هو أفضل من ذلك، ما هو؟ العفو المستفاد من ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾؛ فهذا المقام أفضل، ومقام ما يتعلق بالمعاقبة -معاقبة المخطئ أو المسيء- مقامات الناس فيها ثلاثة:

إما أن يعاقبه بالمثل؛ وهذا مباح أن يعاقب المسيء بمثل إساءته هذا مباح. ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [سورة النحل، من الآية: ١٢٦] بدل قوله: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾؛ هنا في هذه الآية قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾؛ إشارة إلى فضل العفو والصفح والندب لذلك، فإذا:

المقام الأول المُعاقبة بالمثل.

المقام الثاني: الصّحح والتجاوز؛ وهذا أفضل.

المقام الثالث: المعاقبة باعتداءٍ وظلم؛ وهذا لا يجوز.

فهي مقامات ثلاثة:

- إما أن يعاقب بالمثل؛ وهذا مباح.

- أو أن يصفح؛ وهذا أفضل وأولى وأكمل.

- أو أن يُعاقب بظلم واعتداء؛ وهذا لا يجوز.

وُجمعت هذه المقامات الثلاثة في آية واحدة من القرآن الكريم. من يذكرها وله جائزة؟ أنفضل.. أرفع صوتك..

مداخلة: (٤٦:٣٤)

الأخ أجاب إجابة صحيحة، وهي في قول الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في سورة الشورى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الشورى، من الآية: ٤٠]؛ فهذه الآية جمعت المراتب الثلاثة.

﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلَهَا﴾؛ هذا المقام الأول وهو إباحتها المعاقبة بالمثل.

المقام الثاني: في قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ والعطية على قدر المُعطي **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أجره على الله، ولهذا يأتي على لسان الناس كثيراً عندما يطلبون من شخصٍ المسامحة يقول له: (يا أخي سامح أجرك على الله)، هذه مأخوذة من هذه الآية الكريمة. ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ هذا المقام الثاني وهو الصّحح وهو الأكمل.

والمقام الثالث: وهو المعاقبة بظلم واعتداء وهذا لا يجوز، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

ونحن مرّ معنا قاعدة قريباً وهي: أنه إذا حُذِفَ المتعلق أفاد العموم، وأنا قلت للأخ لك جائزة ولم أحدد، والمجال مفتوح لي، ولهذا جائزته الدعاء له: أن يجزيه الله خير الجزاء، وأن يشبهه، وأن يبارك فيه، وكأنه شاب لم يتزوج أن يرزقه الله **عَزَّجَلَّ** الزوجة الصالحة التقية المؤمنة العفيفة، والسامعين.

القارئ:

وختُم الآية الثالثة بالسَّمِيعِ البصير يقتضي سَمْعُهُ لجميع أصوات ما سكن في الليل والنَّهار، وبصرُهُ بحركاتهم على اختلاف الأوقات وتباين الحالات.

الشيخ:

هذا أيضًا مثلاً آخر قال: (وختُم الآية الثالثة بالسَّمِيعِ البصير)؛ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحج، من الآية: ٦١]؛ ختمها بالسَّمِيعِ و البصير يقول: (يقتضي سَمْعُهُ لجميع أصوات ما سكن في الليل والنَّهار، وبصرُهُ بحركاتهم على اختلاف الأوقات وتباين الحالات)؛ فذكر الله **عَزَّجَلَّ** أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ثم ختم ذلك: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾؛ أي أن الله في أي وقتٍ وأي ساعةٍ وفي أي لحظةٍ من ليلٍ أو نهار مطلع عليه، ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [سورة الرعد، من الآية: ١٠]؛ الكل الله **جَلَّوَعَلَا** سميعٌ لمقالهم، بصيرٌ بحركاتهم وسكناتهم، لا يخفى عليه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** خافية.

ولهذا يستفاد من هذه الآية المراقبة لله **جَلَّوَعَلَا** في أي الوقت، بعض الناس إذا كان في مكان خالي أو في منطقة مظلمة أو كذا ربما يُمارس أمورًا خاطئة، لكن إذا ذكر أن الله هو الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، وأنه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** سميعٌ بصير، يبصر **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** من فوق سبع سماوات ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** جريان الدم في عروقها، ويرى **عَزَّجَلَّ** كل جزءٍ من أجزائها. وسميعٌ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يسمع الأصوات كلها، الخافت منها وغيره، يسمعها ولو كانت كلها في لحظةٍ واحدة، وفي دقيقة واحدة، فهو **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** سميعٌ بصير، فجاء ختم الآية بهذين الاسمين مناسب غاية المناسبة.

القارئ:

وختَمَ الآية الرابعة بالعليّ الكبير؛ لأنَّ علوّه المُطلَق وكبريائه وعظمته ومجده تَضَمَّنَتْ معها المخلوقات، وَيَبْطُلُ معها كُلُّ ما عُبِدَ مِنْ دُونِهِ، وبإثباتِ كمالِ علوّه وكبريائه، يتعيَّنُ أنَّه هو الحق وما سِواه باطل.

الشيخ:

ختم الآية الرابعة بالعلي الكبير. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سورة الحج، من الآية: ٦٢]؛ ختمها بهذين الاسمين دليلٌ على أن علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكبريائه دليلٌ على وجوب أن يُفرد وحده وأن يُخصَّص بالعبادة؛ لأن العبادة حقٌّ للعلي الكبير وحده، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما من سِواه لا يستحق من العبادة أي شيء، ولهذا ختم هذه الآية وفيها الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وإبطال عبادة الأوثان، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾؛ ختمها بهذين الاسمين دليلٌ على أن العبودية حقٌّ للعلي الكبير، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نظير هذه الآية تمامًا قول الله في سورة سبأ: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمْ مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَاهِرٍ ۖ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ وَحَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ، من الآية: ٢٢-٢٣]؛ فختم الآية بهذين الاسمين دليلٌ على أن المتصف بالعلو والكبرياء هو المستحق للعبادة.

وأيضًا نظيرها ختم آية الكرسي بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة، من الآية: ٢٥٥]؛ فالعلي الذي له العلو المطلق ذاتًا وقدرًا وقهرًا، والعظيم الذي له العظمة في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، وفي شرعه؛ هو الذي يستحق أن يُخلص أو أن تُخلص له العبادة، وأن يُخصَّص **جَلَّ وَعَلَا** وحده بالطاعة، وأن لا يُجعل معه شريكًا في شيء من ذلك.

القارئ:

وختَمَ الآية الخامسة باللطيف الخبير، الدَّالِّين على سعة علمه وخبرته بالبواطن كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور والوان النباتات، وأَنَّهُ لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق، بما أنزله من الماء النмир، والخير الغزير.

الشيخ:

أَيْضًا الْآيَةُ الْخَامِسَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَاءَ فَصَبَّحَتْ الْأَرْضُ مَخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحج، من الآية: ٦٣]؛ ختمها بهذين الاسمين في غاية المناسبة؛ لأن اسم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى اللطيف يدل على إيجاده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأشياء بلطفٍ وتيسيره لها بلطف، وانظر هذا المقام -مقام إخراج الزرع- عندما توضع البذرة التي هي قطعة جامدة، عندما تُوضع في الأرض ويصل إليها الماء، يخرج منها خيطٌ رفيعٌ جدًا ولونه أصفر لو وضعت عليه يدك لتكسر وتهشم، هذا الجزء الرقيق يشق الأرض الصلبة المتماسكة، يشقها مع رفته ولطافته ودقته يشقها ويخرج، ثم يكبر إلى أن يُخرج منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما شاء من البذور أو الثمار؛ فهذا كله من لطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَاءَ فَصَبَّحَتْ الْأَرْضُ مَخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

قال: (وَحَتَمُ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ بِاللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، الدَّالِّينَ عَلَى سِعَةِ عِلْمِهِ وَخَبْرَتِهِ بِالْبَوَاطِنِ كَالظَّوَاهِرِ، وَبِمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ الْأَرْضُ مِنْ أَصْنَافِ الْبُذُورِ وَالْوَأْنِ الْنبَاتِ، وَأَنَّهُ لَطَفَ بِعِبَادِهِ حَيْثُ أَخْرَجَ لَهُمْ أَصْنَافَ الْأَرْزَاقِ، بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْمَاءِ النَّمِيرِ، وَالْخَيْرِ الْغَزِيرِ)؛ أي أن هذا أيضًا من لطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعباده.

القارئ:

وَحَتَمَ الْآيَةَ السَّادِسَةَ بِالْغَنِيِّ الْحَمِيدِ، بَعْدَ مَا ذَكَرَ مُلْكُهُ لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْهَا حَاجَةً مِنْهُ لَهَا، فَإِنَّهُ الْغَنِيُّ الْمَطْلُوقُ، وَلَا لِيَتَكَمَّلَ بِهَا فَإِنَّهُ الْحَمِيدُ الْكَامِلُ، وَلِيَدْلَهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ فَقَرَاءٌ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَأَنَّهُ حَمِيدٌ فِي أَقْدَارِهِ، حَمِيدٌ فِي شَرْعِهِ، حَمِيدٌ فِي جَزَائِهِ، فَلَهُ الْحَمْدُ الْمَطْلُوقُ ذَاتًا وَصِفَاتًا وَأَفْعَالًا.

الشيخ:

ثم ختم جَلَّ وَعَلَا الْآيَةَ السَّادِسَةَ: ﴿لَهُ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة الحج، من الآية: ٦٤]؛ لما ذكر ملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للسموات والأرض وما فيهما؛ ختم الآية بأنه غني، أي: أنه جَلَّ وَعَلَا غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّهُمْ فَقَرَاءٌ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهو غَنِيٌّ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا الْغَنِيُّ غَنَّا ذَاتِي، غَنِيٌّ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَمَخْلُوقَاتِهِ فِيهَا فَقْرُ ذَاتِي مِنْ كُلِّ وَجْهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا غَنَى لَهُمْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى طَرَفَةً عَيْنٍ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ

هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿[سورة فاطر، من الآية: ١٥]؛ فختمها باسم الغني لهذه المناسبة، وختمها باسم الحميد؛ لأن الخالق للسموات والأرض والموجد لهذه الكائنات له الحمد **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، له الحمد ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً **جَلَّ وَعَلَا**.

ولهذا مما يُحمد عليه **جَلَّ وَعَلَا** خلقه للسموات والأرض بهذه الصفة العظيمة؛ لأنه يُحمد **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** على أسمائه وصفاته، ويُحمد **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** على أفعاله، ويُحمد **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** على نعمه وآلائه التي لا تُعد ولا تُحصى.

القارئ:

وختَمَ الآية السابعة بالرؤوف الرحيم؛ أي: مِنْ رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ تَسْخِيرُهُ المخلوقات لبني آدَمَ وَحِفْظَ السموات والأرض، وإبقاؤها وإمسакها لئلا تزول فتختل مصالِحهم، وَمِنْ رَحْمَتِهِ سَخَّرَ لَهُمَ البحار لتجري في منافعهم ومصالحهم، فرَحِمَهُمْ حيثُ خلقَ لَهُمَ المسكنَ، وأودَعَ فِيهِ كُلَّ ما يحتاجونهُ، وَحَفَظَهُ عَلَيْهِمْ وأبقاه.

الشيخ:

ثم ختم الآية السابعة وهي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحج، من الآية: ٦٥]؛ فكل هذه المعاني المذكورة في الآية كلها من رَأْفَةِ الله وَرَحْمَتِهِ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بعباده، فلهذا كان مناسباً غاية المناسبة ختم الآية بهذين الاسمين.

القارئ:

ولمَّا ذَكَرَ فِي سورة الشعراء قِصَصَ الأنبياء مع أممهم، خَتَمَ كُلَّ قِصَّةٍ بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الشعراء، من الآية: ٩]؛ فَإِنَّ كُلَّ قِصَّةٍ تَضَمَّنَتْ نَجَاةَ النَّبِيِّ وَأَتْبَاعِهِ، وَذَلِكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَلُطْفِهِ، وَإِهْلَاكَ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ، وَذَلِكَ مِنْ آثَارِ عِزَّتِهِ.

وقَدْ يَتَعَلَّقُ مُقْتَضَى الاسمين بِكُلِّ مِنَ الحالتين؛ فَإِنَّهُ نَجَّى الرُّسُولَ وَأَتْبَاعَهُ بِكَمَالِ قُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَأَهْلَكَ الْمُكَذِّبِينَ بِعِزَّتِهِ وَحُكْمَتِهِ، وَيَكُونُ ذِكْرُ الرَحْمَةِ يَقْتَضِي عِظَمَ جُزْمِهِمْ، وَأَنَّهُ لَوْ لَا أَنَّ جُرْمَهُمْ تَعَاظَمَ وَسَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَبْوَابَ الرَحْمَةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ طَرِيقٌ إِلَيْهَا لَمَا أَحَلَّ بِهِمُ الْعِقَابَ.

الشيخ:

ثم ذكر هذا المثال وهو أن سورة الشعراء تكرر فيها في مواضع قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾؛ يختم قصة كل نبي بهذين الاسمين، والقصة مشتملة في تمامها على نجاة النبي وهلاك الظالمين، كل قصة مشتملة على نجاة النبي وهلاك الظالمين، ثم تُختم كل قصة بذكر هذين الاسمين: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾؛ تُختم بهذين الاسمين.

فيقول الشيخ: ختم الآية بهذين الاسمين: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾؛ إما أن يكون هذان الاسمان أحدهما يتعلق بالنبي وهو الرحيم، والآخر يتعلق بالظالمين وهو العزيز، فيكون نجاة النبي هذا من رحمة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وهلاك الظالمين من عزة الله، ولهذا إذا أثاب يثيب برحمته وفضله، وإذا عاقب يُعاقب بعزته وعدله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

فيكون تعلق اسم الرحيم بالأنبياء؛ ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية: ٤٣]، ويكون اسم العزيز يتعلق بهؤلاء؛ أي أن هلاكهم هو من عزة الله، ومر معنا فيما يتعلق بالسارق، وأن العقوبة التي أحلها الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** به هذا من عزة الله وغلبته وقدرته **جَلَّ وَعَلَا**، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة المائدة، من الآية: ٣٨].

فالشاهد: أنه قد يكون المراد هذا، ويقول الشيخ: احتمال أن يكون للاسمين تعلق بكلا الطرفين. ووضح ذلك **رَحْمَةُ اللَّهِ** قال: (وقد يتعلّق مُقتضى الاسمين بكلِّ مِنَ الحالتين)؛ يعني يتعلق بالنبي وأتباعه، ويتعلق بالظالمين.

يقول: (فإنَّه نَجَّى الرسول وأتباعه بكمالِ قُوَّتِهِ وعِزَّتِهِ ورحمته)؛ وهذا واضح. (وأهلك المُكذِّبينَ بعِزَّتِهِ وحكمته)؛ لكن ما تعلق الرحمة هنا؟ يقول الشيخ: (ويكونُ ذكرُ الرحمة يقتضي عِظَمَ جُرْمِهِمْ، وأنَّه لولا أن جُرْمَهُم تعاضم وسدوا على أنفسهم أبوابَ الرحمة، ولم يكن لهم طريقٌ إليها لما أحل بهم العقاب)؛ فيكون ذكر الرحمة أو تعلق الرحمة بهم من هذه الجهة، وإلا ليس لهم نصيبٌ هم من رحمة الله التي يدل عليها اسمه الرحيم؛ لأنها خاصة بالمؤمنين كما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

القارئ:

وأما قول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة، من الآية: ١٨]؛ ولم يقل: أنت الغفور الرحيم؛ فَإِنَّ المقام ليس مقام استعطافٍ واسترحام، وإنما هو مقام غضبٍ وانتقام مِمَّن اتَّخَذَهُ إِلَهًا مع الله، فناسبَ ذكر العِزَّة والحكمة، وصارَ أولى مِنْ ذكر الرحمة.

الشيخ:

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ذكر هذا المثال؛ لأن بعض من يفهم هذه القاعدة قال: بعض من يفهم هذه القاعدة قد يأتي إلى هذا الموضوع ويستشكل على ضوء القاعدة التي مرت معنا ودرسناها وأخذنا أمثلة عليها، بعض الناس يستشكل، يقول: الله يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ لِمَ لم يأتي في المقام الختم بالمغفرة والرحمة؟ يعني البعض قد يستشكل ذلك، يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في الجواب على هذا الاستشكال، يقول: (ولم يقل: أنت الغفور الرحيم؛ فَإِنَّ المقام ليس مقام استعطافٍ واسترحام)؛ لأن الكافر يوم القيامة لا مطمع له في رحمة الله، وليس المقام مقام استرحام واستعطاف وطلب الرحمة للكافر؛ لأن الكافر لا مطمع له البتة في مغفرة الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [سورة النساء، من الآية: ٤٨]؛ من لقي الله مشركًا لا مطمع له في رحمة الله، والله يقول: ﴿فَمَا تَتَفَعَّلُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [سورة المدثر، من الآية: ٤٨]؛ ولهذا المقام ليس مقام استعطاف واسترحام حتى يُختم بذكر هذين الاسمين: الغفور الرحيم، قال: (وإنما هو مقام غضبٍ وانتقام مِمَّن اتَّخَذَهُ إِلَهًا مع الله)؛ اتخذ عيسى إِلَهًا مع الله؛ فناسبَ ذكر العِزَّة والحكمة وصارَ أولى مِنْ ذكر المغفرة والرحمة.

القارئ:

وَمِنْ أَلْطَفِ مَقَامَاتِ الرَّجَاءِ: أَنَّهُ يَذْكُرُ أَسْبَابَ الرَّحْمَةِ وَأَسْبَابَ الْعُقُوبَةِ، ثُمَّ يَخْتِمُهَا بِمَا يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: ١٢٩]، وقوله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية: ٧٣]؛ وذلك يدلُّ على أَنَّ رحمة سبقت غضبه وغلبته وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كُلُّ مَنْ وَجَدَ فِيهِ أَدْنَى سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الرَّحْمَةِ، ولهذا يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنَ الْإِيمَانِ، ولنتقصر على هذه الأمثلة فَإِنَّهُ يُعَرَفُ بِهَا صِفَةُ الاستدلالِ بذلك.

الشيخ:

ثم ختم **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى بهذا المثل قال: (وَمِنْ أَلْطَفِ مَقَامَاتِ الرَّجَاءِ)؛ يعني تقوية الرجاء في قلب العبد حال تدبره لكلام الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وتأمله في آي القرآن. (وَمِنْ أَلْطَفِ مَقَامَاتِ الرَّجَاءِ أَنَّهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يَذْكُرُ أَسْبَابَ الرَّحْمَةِ وَأَسْبَابَ الْعُقُوبَةِ، ثُمَّ يَخْتِمُهَا بِمَا يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ)، وذكر آيتين مثلاً لذلك:

الأولى: قول الله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: ١٢٩] ٦ وهذا يقوي في العبد قوة الرجاء والطمع في رحمة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

والثانية: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية: ٧٣].

قال: (وذلك يدلُّ على أنَّ رحمته سبقتُ غضبه وغلبيته)؛ وهذا ثابت في الحديث الصحيح أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** قال: «إن رحمتي غلبت»، وفي رواية: «سبقت غضبي».

قال: (وصار لها الظُّهور)؛ يعني الرحمة. (وإليها ينتهي كلُّ مَنْ وُجِدَ فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنَ الْإِيمَانِ)؛ بل جاء في بعض الأحاديث أنه قال: «أدنى أدنى أدنى حبة خردل من إيمان»، وهذا يدل على ظهور الرحمة وغلبيتها، وأنها سبقت غضب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وأن كل من وُجِدَ فيه أدنى سببٍ وأيسر سببٍ ينال به رحمة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** نالها. وهذا كله خاصٌ فيمن عنده إيمان.

أما الكافر الذي أحبط كفره أعماله وحسناته؛ فهذا لا مطمع له في رحمة الله ومغفرته إن مات كافراً؛ لأن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [سورة النساء، من الآية: ٤٨] ٦ ويقول:

﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [سورة النبأ، من الآية: ٣٠] ٦ ويقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [سورة فاطر، من الآية: ٣٦].

لما أنهى **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى هذه الأمثلة قال: (ولنقتصر على هذه الأمثلة فإنه يُعْرَفُ بها صفة الاستدلال بذلك)؛ يعني إنك إذا عرفت القاعدة وبعض أمثلتها انفتح لك الباب وتيسر لك بعون الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وتوفيقه فقه هذا الباب.

وأعيد ما بدأت به أن فقه هذه القاعدة وإعمالها يحتاج إلى نوعين من الفهم:

الأول: فهم أسماء الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الحسنى فهماً صحيحاً في ضوء أدلة الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح - رحمهم الله تعالى -.

والفهم الثاني: فهم الآيات و السياقات التي وردت فيها أسماء الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ثم بعد ذلك ينظر في الرابطة بين المعنى الذي قرر في الآية والاسم الذي خُتمت به الآية.
والله تعالى أعلم.

أحب في كلمة مختصرة لا أطيل فيها أن أتكلم قليلاً عن بعض الأحكام اليسيرة، أو الأمور التي تحتاج إلى شيء من التنبيه فيما يتعلق بالاعتكاف، والاعتكاف طاعة عظيمة وعبادة جليلة، ولا سيما في هذه العشر المباركة، والأيام الفاضلة.

وهو سنة سنّها رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وفعّلها واعتكف **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** واعتكف أزواجه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من بعده، ومكان الاعتكاف هو المساجد، ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [سورة البقرة، من الآية: ١٨٧]؛ ولا اعتكاف إلا في المساجد، سواء المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، وهي أفضل أماكن الاعتكاف لقوله **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**: «لا اعتكاف إلا في ثلاثة المساجد»؛ أي لا اعتكاف أفضل وأكمل، والاعتكاف مشروع في كل مسجد.

والاعتكاف هو لزوم المسجد، ولهذا الأصل في المعتكف أن يهيب نفسه ليلزم المسجد، وأن يبقى في مكانه، يخلو بربه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** تالياً لكتابه، ذاكراً له، مستغفراً مناجياً محاسباً لنفسه، مراقباً لربه **جَلَّ وَعَلَا**، مقوياً إيمانه، مبتعداً عن التعلق بالدنيا ونحو ذلك، حتى يصفوا قلبه ويزداد إيمانه، وتقوى صلته بالله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، ويكون الاعتكاف عليه الأثر البالغ ليس في أيام الاعتكاف، وإنما في أيامه كلها.

فيكون الاعتكاف للمعتكف بمثابة القاعدة التي يبني عليها أيامه اللاحقة بعد الاعتكاف، ولهذا ينبغي على المعتكف أن يحسن في اعتكافه، وأهم ما يوصى به الإخلاص لله **جَلَّ وَعَلَا**؛ لأن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لا يقبل أي عمل الاعتكاف أو غيره إلا إذا كان خالصاً، فمن اعتكف مراعاة، أو اعتكف مباهاة، أو اعتكف مفخرة، أو اعتكف لغير ذلك من الأغراض لا يقبل الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** منه ذلك؛ لأنه يقول: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»، ولهذا الاعتكاف كغيره من الأعمال يحتاج من العامل إلى مجاهدة

للنفس، وطردٍ للرياء، وأن يجتهد أن يكون عمله خالصاً لله بينه وبين الله يرجو به ثواب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، لا يطلب فيه محمداً ولا رياءً ولا سمعةً ولا غير ذلك من المقاصد التي هي سبب لرد العمل وعدم قبوله.

الأمر الثاني: ينبغي على المعتكف أن يحرص في اعتكافه على الاهتداء بهدي النبي الكريم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**، والاقتراء بسنته والسير على منهاجه، وأن يكون اعتكافه خلوة بينه وبين الله يلزم مكانه ذاكرةً تالياً عابداً مستغفراً، يجمع قلبه على الذكر والخضوع لله، وأن يكون كلامه مع الناس في حدود الحاجة أن يُسأل عن حاله فيجيب، أو يسأل عن حال إخوانه أو في حدود الحاجة.

أما أن تتحول أماكن الاعتكاف وهي المساجد منتديات للسمر والمرح والمزاح والضحك والجلسات الطويلة على هذا المنوال، ويكون في مثل هذا إيذاء للقارئ، لقارئ القرآن، إيذاء للمسيح والمستغفر، إيذاء للمصلي، أحياناً بعض الناس لا يستطيع أن يُصلي صلاةً مطمئنةً خاشعة، لا يستطيع أن يتلو تلاوة مطمئنة، لا يستطيع أن يسبح ويذكر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** إلى جنبه ضوضاء وصوت عالي من إخوانه المعتكفين، فهذا المعتكف لا هو الذي خلا بنفسه وجلس يستغفر، ولا هو الذي أعطى فرصة للمعتكف أن يؤدي اعتكافه على أحسن حال.

ولهذا أحياناً تتحول بعض مجالس المعتكفين إلى مجالس سمر، ومزح، وضحك، ورفع صوت، ومناداة؛ إذا كان صاحبك الذي تريده بعيداً عنك لا تناديه بصوت عالي، قم بهدوء واذهب إلى مكانه وتحدث معه بهدوء، لما تناديه بصوت عالي أتدري ماذا صنعت؟ هناك مصلي ربما تترك عليه صلاته، قطع شوطاً في سورة ثم ناديت بصوتٍ عالي أخلفت عليه السورة التي هو يقرأها، ثم لا يدري أين وقف؟ بسبب الصوت الذي صدر منك، أيضاً التالي لكتاب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** المستغفر المسبح؛ هؤلاء كلهم لهم حقوق عليك، ولهذا بعض المعتكفين لا يبالي، يعني صاحبه على مسافة بعيدة منه يصوت له بصوت عالي ولا يبالي بإخوانه المعتكفين، أو القارئ، أو التاليين لكلام الله، فمثل هذه الأمور ينبغي أن تكون من المعتكف أو غيره ممن هو في المسجد أن تكون منهم على بال.

أيضاً قول الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: ٣١]؛ هذه ينبغي أن تُراعيها حتى وأنت معتكف، عندما تجلس في المسجد أو تنتقل فيه، ينبغي أن تُحافظ على السميت، وأن تُحافظ على زينتك، وأن تُحافظ على هيئتك، وكونك معتكفاً لا يخول لك أن تكون في المسجد ومتنقلاً فيه وأيضاً مصلياً بهيئة لا تراها أنت مناسبة ولا تراها هيئة مناسبة ولا تراها زينة، ولهذا ينبغي على المعتكف أن يراعي هذا

الجانب، وإذا كان وقت نومه وراحته وهو جالس على فراشه وقت النوم ووقت الراحة بدّل ثوبه بثوب نومٍ ونام فيه، ثم بعد ذلك يلبس ثياب الزينة ويكون تنقلاته فيها وتحركاته فيها.

ومن أخطاء بعض الإخوة المعتكفين أنه ينام بين الصفوف، ولا سيما صلاة الليل وقيام الليل، الناس يصلون قيامًا وهو بين الصفوف نائم، فإذا كان غلبته عينه ويحتاج إلى النوم، يترك الصفوف متصلة، ويذهب إلى مكانٍ لا يكون بين الصفوف نائمًا.

ولهذا أحيانًا - وهذا يحصل نادرًا - أحيانًا يكون المعتكف نائم بين الصفوف وشخيره طالع بين المصلين، ويؤذيهم بمثل هذا الصوت، فلماذا؟ لماذا مثل هذا العمل؟ لا، إذا كان غلبتك النوم ولم تستطع؛ حاول أن تبعد عن المكان الذي فيه الصلاة، وتتركه لإخوانك المصلين.

أيضًا ينبغي على المعتكف أن يُراعي حُرمة وحقوق إخوانه، فلا تترك حاجاتك ومتاعك وملابسك وأغراضك منثولة مؤذية للناس، بعض المعتكفين يتركها لإخوانه المصلين هم يتولون ترتيبها له، وهو يمشي لا يبالي يقوم من فراشه حينما ينهض منه ويذهب للوضوء ويتركه، ويتولى ترتيب فراشه له إخوانه المصلين، يضطرون إلى ترتيب المكان حتى يجدون مكان يصلون فيه.

أنسيت أنك بمسجد؟ في بيتٍ من بيوت الله؟ أنسيت أن هؤلاء الإخوان لهم حق عليك؟ فهذا أمرٌ ينبغي أن يُلاحظ.

أيضًا قضية الجوالات وما أدراك ما الجوالات؟! يعني بعض المعتكفين حاله وقت الاعتكاف في مهاتفاته ومخابراته عن طريق الهاتف ورده ومحادثاته وممازحاته لإخوانه ليس كأنه معتكف، فمثل هذا يعني إن اضطرت واحتجت إلى الجوال في حاجاتٍ ماسة تفعل ذلك وإلا تفرغ لما جلست في المسجد لأجله وهو عبادة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

ومما ينبه عليه أهل العلم كثيرًا ألا تستخدم الأفياش التي في المساجد لشحن الجوالات؛ لأن هذه أوقاف مختصة بالمساجد ليست لهذا الأمر، ولهذا أفتى غير واحدٍ من مشائخنا بعدم جواز ذلك، فالأفياش التي في المساجد ليست مخصصةً لشحن الجوالات، وإنما هي لمصالح وأغراض المسجد.

وبعض المعتكفين يعني وصل به الأمر إلى أنه كسر الأماكن حتى يمكن أن يُدخل فيشة جواله في المكان كان المكان لا يتسع لفيش جواله فكسره، وهذا إثم، إتلاف لمنافع في المسجد، ومصالح في المسجد؛ فلا يجوز للمعتكف أن يفعل شيئاً من ذلك.

وأيضاً أن يحرص المعتكف أن لا يؤدي إخوانه المصلين، لا بملابسه، ولا بأيضاً دفع صناديق الأحذية أو غيرها بحيث يؤدي بها المصلين، بل يكون الاعتكاف مكاناً لصفاء القلوب، ونقاء النفوس، وزيادة الخير، وزوال الشحناء، وقوة الإيمان، وحسن الصلة بالله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، هذه بعض الجوانب التي أنبه عليها، وقد يفوتني شيء من ذلك، لكن هذه أمور ينبغي أن نحرص عليها أشد الحرص. والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.